وجمال الدين الأفغاني يختلف المترجمون فيه؛ هل هو من الفُرس أو من الأفغان؟ ولكن صورة من صوره التي ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئان وشفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه أصدق مقال؛ إن هذا الوجه لأفغانيٍّ ولو وُلِدَ في البلاد الفارسية، وإنه لأفغانيٍّ ولو نمَّاه إليهم قومٌ من الفرس، ونفاه عنهم قومٌ من الأفغان.

وليس منا إلا مَن يعرف صاحبًا يحاول أن يخفي بعض مثالبه أو بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطًا فإذا هو حاسر الطبيعة بغير نقابٍ، على كرهٍ منه وعلى كرهٍ من المصور، ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من أمره؛ لأنه يفهم إفشاء الكلام ولا يفهم إفشاء السمات والقسمات.

وليس من اللازم اللازب أن يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد، فإني لأذكر أني رأيتُ صورًا ثلاثًا لطفلٍ واحدٍ في السنة الأولى من عمره أُخِذَت في ساعةٍ واحدةٍ في مكانٍ واحدٍ تذكارًا ليوم ميلاده، ترى إحداها فلا تملك أن تقول: ما أشبه هذا الطفل بأبيه، وترى الثانية فلا تملك أن تقول: ما أشبه هذا الطفل بأمه، وترى الثالثة فتستطيع أن تقول إنه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول إنه ليشبه أباه.

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها، فلا يندر أن يلتفت الإنسان التفاتةً خاطفةً على غير قصدٍ منه أمام المرآة فيلوح له شبه من عمومته أو شبه من خئولته لَمْ يكن قبل ذلك يلمحه في صفحة وجهه، وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرةً أخرى إلا في مثل تلك اللفتة الخاطفة.

وأعرف أبًا مشهورًا له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كلٌّ منهم إلى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء، ولا يحتاج الناظر إلى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره أنهما ابن وأبوه، ثم يجتمع الإخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه إلا بفراسة المتأمل، لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات.

ومما لا ريب فيه أن سمات الأخلاق والأفهام شيء يستكن في النفس قبل أن يبدو على أسارير الوجوه، وأنها شيء لا يزول من النفس وإن زال أثره الظاهر في بعض الأحيان، وأنه على قدر معاني النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الأنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء.

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتي لا يطالعنك بمنظرٍ واحدٍ في محضرين متواليين، تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين في دهشة